تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوي

عتاب وطني كريم من السودان :

... ...

تحية طيبة وتقديراً عظيما ، وشكراً على هذا الأدب الحار الذي تمتعنا به في « الرسالة » كل أسبوع ...

وبعد ، فقد ذكرت في كلمتك بعدد « الرسالة » (٨٣٣) تحت عنوان « بين نعيم الديمقراطية وجحيم الشيوعية » كلمات مدحت بها الإنجليز في حفاظهم على مبدأ الحرية وتأثرهم بالحياة الديمقراطية الحرة حينما تقارنهم بالأمريكيين أو الروس .

وكاتب هذه السطور يحتقر الشيوعية ، كما يكفر بكل هذه النظم الغربية الفاشلة . أما الذي دعاني إلى الكتابة إليك ، فهو أني أستكثر جداً ذلك المدح المعمم الذي أضفيته على الإنجليز حينما قلت إنهم « أصحاب ديمقراطية يؤمن بها الحاكم ويستشعرها المحكوم ، ويلتقون جميعاً في رحابها كأكرم ما يلتقي الإنسان الكريم بالإنسان الكريم » ...

إذ كنت تقصد يا سيدي أنهم يسيرون وفق هذا المبدأ في انجلترا وحدها فهو صحيح ، ولكن الإنجليز لا يستحقون على ذلك كل هذا المدح ، بل يجب أن نقول إنهم أنانيون وغير إنسانيين ، وإنهم لم يؤمنوا بعد بمبدأ الحرية الذي يجعل الناس سواسية كأسنان المشط مستعمِرين أو مستعمَرين . فالإنجليز خارج انجلترا حكام إرهابيون بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وأظنك قد سمعت بالقنابل التي فتكت بمواطنيك من أبناء الجنوب في شهر نوفمبر الماضي في « عطبرة » و « بورسودان » ، وعشرات الجرحى ومئات الذين ضربوا بالعصى الثقيلة في « الخرطوم » ، ومئات الذين زجوا في سجون البلدان الأخرى بالسودان لشيء بسيط هو أبسط ما يسمح به للفرد في ظل الحكومة الديمقراطية ، هو إعلان الرأي سواء بالكتابة أو الخطابة أو المظاهرة السلمية العزلاء !

وأظنك تسمع بسلسلة المحاكمات الجارية اليوم تحت المادة (١٠٥ من قانون عقوبات السودان) ، لأن فلاناً كتب مقالا ، أو أدلى بتصريح من شأنه أن يسبب كراهية الإنجليز أو حكومة السودان ، وغير ذلك ... فما رأي الأستاذ في هذه الديمقراطية المزيفة ؟! أقول لن يستطيع الإنجليز أن يحصلوا على مدحك هذا عن جدارة واستحقاق حتى يتساوى المحكوم في (الخرطوم) بالمحكوم في (لندن) في كل الحقوق الديمقراطية ، وحتى يؤمن الإنجليز ببيتي فيلسوف العرب المعري :

ولو أني حبيت الخلد فرداً ... لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت علي ولا بأرضي ... سحائب ليس تنتظم البلادا

وإني في انتظار ردك الكريم .

(السودان) ج . ع البشير

هذا هو العتاب الوطني الكريم الذي تلقيته من الجنوب وأشرت إليه في عدد مضى من « الرسالة » ... إن كلماته الملتهبة بصدق الوطنية وحرارة الإيمان لتهزني هزاً عنيفاً ، تهزني لأنها تحمل إلي من أعماق النفوس الأبية نفحات ونفحات ، وتنقل إلي من سجل الجهاد النادر سطوراً هي في حساب الشعور صفحات ...

أما العتاب — وإن كنت لا أستحقه — إلا أنني أنزله من نفسي منزل الود الخالص والأخوة المتسامية ، الأخوة التي استروحت أنسام الأرض الطيبة على ضفاف نهر واحد وتحت سماء وطن واحد !

يا أخي ، يا أخي في الله والدين والوطن ... إن الأرض التي جمعت بين قلبي وقلبك لتجمع بين جراح وجراح ، وإن النيل الذي ربط بين روحي وروحك ليربط بين كفاح وكفاح ... أنا هنا وأنت هناك ، وما أبعد الشقة في منطق الظلم البغيض ، وما أقربها في منطق الحب المتغلغل في طوايا الوجدان ... نحن يا أخي في ميدان الجهاد يد تمد إلى يد ، وفي معرض التضحية قدم تسعى إلى قدم ، وفي مجال الوفاء عاطفة تقبس من عاطفة ... فكيف تعاتبني على كلمات قلتها في سياق الحديث عن قوم يؤمنون بالديمقراطية في أرضهم ، ويكفرون بها في أرض الناس ؟!

أجل ، يا صديقي ، لقد كنت أتحدث عن الإنجليز في بلادهم ، إنهم هناك أصحاب ديمقراطية يؤمن بها الحاكم ويستشعرها المحكوم ، ويلتقون جميعاً في رحابها كأكرم ما يلتقي الإنسان الكريم بالإنسان الكريم ... حقيقة فسجلها في الأذهان ويسجلها

التاريخ ، حتى إذا ما سجلنا النقيض كنا أمناء على الحق سواء أشدنا بالعدل أم أشرنا إلى الظلم والطغيان !

من الحق أن ننعت الإنجليز بأنهم مثاليون فى بلادهم ، مثاليون فى قيم النزاهة ومعايير الخلق وموازين الإنسانية والضمير! ومن الحق أيضاً أن نتهمهم بأنهم مثاليون فى غير بلادهم ، مثاليون فى الأنانية والجشع ، وضيعة الضمير والخلق ، وانتفاء العدل والإنصاف . وتلك هى العناوين الضخمة التى يسطر تحتها التاريخ كلماته الخالدة حين يعرض للحكم البريطانى فى أرضه وكل أرض سكنها الأحرار فى كل زمان ومكان !

يا أخى ، يا أخى فى الله والدين والوطن ... إن الأنشودة الرائعة التى بدأناها فى شمال الوادى ، أنشودة الجهاد التى انطلقت من قيثارة الأحرار ، قد أذن الله أن ترسل أنغامها فى جنوبه . وكل نغم إلى فناء ، وكل نار إلى رماد ، وكل ذكرى إلى نسيان ... ولكن أنغامنا ستظل إلى الأبد ترن فى مسمع الزمن ، ولكن نارنا ستظل إلى الأبد تضئ الطريق للسالكين ، ولكن ذكرانا ستظل إلى الأبد قصة تروى وعطراً يفوح !

ولا عليك يا أخى من تلك القيود ... إن معدنها الرخيص سيذوب يوماً تحت وهج النار المتأججة فى حنايا الضلوع !

ولقد قال أبو العلاء ما قال لأنه إنسان ، ولكن أين من يستمع لنداء الإنسانية وقانون السماء ؟ ألا ليت الطغاة قد جعلوا شعار حكمهم هذه الكلمات التى انطلقت من أعماق بطل الحرية إبراهام لنكولن : « إن ضوء الشمس لا يفرق فى يد الله بين أحرار وعبيد ، فلم يفرق ضوء الحرية فى أيدينا بين أنصار وخصوم »! ومع ذلك فنسير يوماً جنباً إلى جنب ، وقلباً إلى قلب ، وعيوننا أبداً إلى الأفق البعيد !

ضجة أدبية حول كتاب لأرتير رامبو :

أرتير رامبو شاعر من شعراء الرمزية فى الأدب الفرنسى توفى فى أواخر القرن التاسع عشر عام ١٨٩١ ... ولقد كان رامبو صديقاً حميماً لشاعر الرمزية الأول بول فرلين ، حتى لقد تعرضت تلك الصداقة الوطيدة لتجريح بعض النقاد من ناحية السلوك الأخلاقى!

ونترك هذه الناحية الشائكة لنقول إن إحدى دور النشر الكبرى فى باريس قد أعلنت فى الأيام الأخيرة عن حصولها على مجموعة شعرية لرامبو ، وأنها على أهبة طبعها لتكون بين أيدى القراء ... ولقد كان معروفاً أن هناك أديباً فرنسياً كبيراً يمتلك هذه المجموعة التى كتبها رامبو بخط يده وتركها بعد موته دون أن تأخذ طريقها إلى المطبعة . ومن هنا أحدث الخبر ضجة كبرى فى الأوساط الأدبية الفرنسية ، حتى لقد تهافت المعجبون بفن رامبو على ألوف النسخ المطبوعة فنفدت فى مدى يومين !

أما النقاد الفرنسيون ، فقد استقبلوا الكتاب بحفاوة بالغة دفعت أحدهم وهو « باسكال بيا » إلى أن يكتب عنه كلمة مستفيضة رفع فيها شعر رامبو إلى القمة من الأدب الفرنسى الحديث ... وحين فرغ الكاتب الفرنسى الكبير « فرانسوا مورياك » عضو الأكاديمية الفرنسية من مطالعة المجموعة تناول قلمه ليكتب مقالا يصب فيه إعجابه البالغ بفن رامبو ، ذلك الإعجاب الذى فجر الدموع فى عينيه وهو ينصت لهمسات الشاعر فى كل قصيدة من قصائده!

وفى الوقت الذى هم فيه مورياك بأن يبعث بمقاله إلى جريدة « الفيجارو » أذاع أحد الكتاب الفرنسيين وهو « بيير بريسون » خبراً فحواه أن هناك خدعة كبرى وقعت فيها « الماركيورى فرانس » حين أقدمت على نشر كتاب لا يمت إلى الشاعر الفرنسى بصلة من الصلات ، مؤكداً أن النسخة الخطية التى طبعت لم يكتبها رامبو وإنما كتبها شابان عابثان يسعيان إلى جمع المال من طريق غير شريف ! واهتزت الأوساط الأدبية الفرنسية تحت وقع الخبر ، وبخاصة حين أعلن الكاتب السريالى الكبير « أندريه بريتون » أن النسخة الخطية التى كتبها رامبو بين يديه ، وأن تلك التى نشرت ما هى إلا تقليد بارع ! وانقلبت الضجة إلى خصومة عنيفة انقسم بسببها الأدباء الفرنسيون إلى فريقين : فريق ينتصر لباسكال بيا وفرانسوا مورياك حين يزعمان أن التقليد لا يمكن أن يسمو إلى مثل هذا الأداء الفنى الرفيع ، وفريق آخر ينتصر لأندريه بريتون وبيير بريسون حين يؤكدان أن الأمر لم يكن إلا خدعة نسجت خيوطها بمهارة !

وأخيراً انتهت الخصومة العنيفة إلى مهزلة ليس لها نظير ... لقد اعترف الأديبان الناشئان بفعلتهما الجريئة ، ذاهبين إلى أنهما لم يهدفا إلى الحصول على المال عن طريق غير شريف ، ولكن هدفهما هو أن يحصلا على شهرة أدبية لا يستطيعان أن يصلا إليها من طريق إسمين غير معروفين ، ولقد دانت لهما تلك الشهرة عن جدارة أيدها بقلبه وقلمه عضو من أعضاء الأكاديمية الفرنسية ... هو فرانسوا مورياك !

قصة فريدة نهديها إلى أدبائنا الناشئين ممن تعرض عن إنتاجهم دور النشر وتوصد المجلات الأدبية أبوابها فى وجوههم .. نهديها إليهم لندلهم على أقصر طريق يصلون منه إلى الشهرة الأدبية وقلوب الناشرين !!

بعض الرسائل من حقيبة البريد :

رسالتان من « العراق » وكلتاهما من « بغداد » ، أما الأولى فمن الأديب الفاضل عمر عيسى السامرائى بمعهد التربية البدنية وبها سؤال عن بعض ماجاء بكتاب « على هامش السيرة » من آراء متناقضة للدكتور طه حسين ، وأما الثانية فمن الأديب الفاضل إسماعيل محمد السامرائى وبها سؤال آخر عن بعض ماجاء بمسرحية « شهر زاد » من فلسفة لفظية تخالف منطق الواقع للأستاذ توفيق الحكيم ، وسأجيب عن السؤالين فى العدد القادم من « الرسالة » . وهذه هى الرسالة الثالثة من « عمان — شرق الأردن » تحمل إلى معلومات طريفة صبت فى قالب من التهكم اللاذع على ذلك القصاص العامى النابغ الذى قلت عنه إنه درس فن القصة فى كتاب القرية ، ولقد كنت أود أن أثبت هذا التهكم غير أنى تذكرت أن المقصود به أهون من أن يشار إليه بأى لون من ألوان الذكر ، ولهذا أعتذر للأديب الأردنى الفاضل أحمد عزيز يتوغن شاكراً له كريم تقديره . والرسالة الرابعة من « المحرق — البحرين » أشكر لمرسلها الأديب الفاضل مبارك راشد الخاطر حسن ظنه ، وأجيبه بأن رأيى فى شعره هو أن أداءه اللفظى لا بأس به وأن كل ما ينقصه هو العناية بالأداء النفسى ، وتلك ناحية سأعرض لها بالنقد والتحليل فى عدد مقبل من « الرسالة » تحت عنوان « الأداء النفسى فى شعر المهجر » . والرسالة الخامسة من « عدن » يأخذ على فيها الأديب الفاضل على باذيب ذلك الرأى الذى سبق أن أبديت فيه إعراضى عن إخراج كتاب مادام الجمهور القارئ معرضاً عن شراء الكتب ، يا صديقى أنا شاكر لك نبلك الخاطر وتمنك الغالية ، أما الإعراض عن التأليف فهو إلى حين ، وليس بمستبعد أن تنتهى أزمة القراء ويتجدد الأمل !

وأنتقل بعد ذلك إلى الرسالة السادسة وهى من « عطبرة — سودان » لأقول لصاحبها الأديب الفاضل مكرم سعيد إنى مقدر له هذا الشعور النبيل المتدفق من كلماته ، ولست أملك إلا أن أستجيب لرغبته فى الأيام المقبلة . وإلى الرسالة السابعة وهى من « الخرطوم — سودان » أيضاً لأقدم خالص امتنانى للأديب الفاضل عبد الرحيم محمد أحمد على تحيته الصادقة ، ولأجيبه عن رغبته فى أن أخص الأدب السودانى بشىء من العناية بأنه يؤسفنى حد الأسف ألا يكون بين يدى من نصوص هذا الأدب ما يمكننى من الكتابة عنه ، وحبذا لو بعث إلى كتاب السودان وشعراؤه بإنتاجهم الأدبى مطبوعاً لأقوم بدراسته وتقديمه إلى القراء . أما الرسالة الثامنة فمن الأديب الفاضل عبد الرحمن السيامى بهيئة الإذاعة البريطانية « بالخرطوم — سودان » ، وفيها يرد على الأستاذ محمد غنيم بمناسبة تخطئته لى حين قلت « لم أكن أعرف » مستشهداً بالآية الكريمة من سورة المدثر « ولم نك نطعم المسكين » إن تعقيبى على هذه اللفتة الموفقة بعد خالص الإعجاب هو أن الأستاذ غنيم معذور لأنه « لم يكن يعرف » : أن التعبير صحيح لا غبار عليه

وتبقى بعد ذلك أربع رسائل مصرية ... الأولى من الأديب الفاضل السيد على الشوربجى الطالب بكلية الحقوق ، وفيها يناقشنى نقاشاً طويلا حول الكلمة التى كتبتها عن أبى العلاء ، يا صديقى أرجو أن تعود مرة أخرى إلى ما كتبت لأن هناك بعض معان قد خفيت عليك ولعلها تتكشف لك بعد التأمل والمراجعة . والثانية حول أبى العلاء أيضاً وهى من جندى فاضل بالجيش المصرى رمز لنفسه بتلك الحروف الأولى من اسمه (م . ف . ا) ... أنا شديد الإعجاب بأن يكون بين جنودنا البواسل من يقرأ « الرسالة » ويعشق الأدب ، ويغوص بفكره فيما كتبت عن أبى العلاء ، ويخاطبنى بقوله « سيدى طبيب الأدب ، أنا مؤمن بما جئت به عن الحرمان النفسى والجسدى عند أبى العلاء ، ولكن ما ذا تقصد بالحرمان القلبى حين قلت إن قلب أبى العلاء كان يشكو الحرمان من العاطفة مع أن هذا القلب كان عامراً بالعاطفة الانسانية » ؟ ... عزيزى أديب الجيش ، أنا أقصد العاطفة الأنثوية لا العاطفة الانسانية ؛ تلك التى تنسب إلى المرأة وكان يمكن أن تملأ بعض الفراغ فى حياة أبى العلاء . أما الرسالة الثالثة فمن الأديب الفاضل (م . م س) بمعهد أسيوط الدينى ، إن ردى عليه هو أنه يستطيع أن يدرس اللغة الإنجليزية وهو باق فى دراسته الأزهرية ، وذلك عن طريق بعض الدروس الخاصة من أحد المدرسين الأكفاء ، وهذا هو الطريق الوحيد الذى يحقق له ما يصبو إليه . وأنتهى إلى الرسالة الرابعة أو الثانية عشرة والأخيرة لأشكر لمرسلها الأديب الفاضل محمد فتحى سعيد بعضهور هذا الإخلاص الرائع للمثل العليا الفكرية ، أما شعره الذى بعث إلى به فأود أن يتعهده بالصقل لأرضى عنه فى المستقبل القريب .

أنور المعداوي